من جماليات الأسلوب القرآني

د/ يحيى بن مخلوف
كلية الآداب – جامعة باتنة 1 -

الملخص:

تتناول هذه الدراسة براعة الأسلوب القرآني، ودقة نسج عباراته وسبك جمله وآياته، فقد أُنزل القرآن ليتحَدَّى قريشاً رغم ما حظيت به من فصاحة وبلاغة وبيان إلا أنها عجزت أمام بلاغة أسلوب القرآن، والإعجاز مجال يظل مطروحا على الأجيال، كلما حسب جيل أنه قد بلغ منه الغاية، امتدَّ الأفق بعيدا عن كل مطمح عاليا يفوت كل مطمع. وينفرد الأسلوب القرآني ببراعة النظم وبلاغة الإقناع وجمال التصوير، وكانت قريشا تعتقد أنها بلغت مكانة شامخة بين العرب بحكم موقعها التجاري، ومكانتها الدينية، وتوسطها لأنساب العرب، إلا أن مجيء الإسلام ونزول القرآن بلغتها حصر تلك المكانة، وزاد تلك اللغة ذوقا وجمالا، فأصبحت لغة مقدسة بأن جمعها الله في لغة واحدة بعد ما كانت متفرقة في لغات، وكان طبيعيا أن ينزل القرآن بلغة قريش، لأن رسول الله ﷺ قرشي، وجاء القرآن ببلاغة عظيمة ودعا إلى التأمل وساق الأدلة لتنفتح العقول والقلوب، فترجع إلى الله خانعة ومؤمنة بأن هذا الكلام مصدره إلهي جاء بأسلوب جديد مبهر بنظمه المحكم يتوخى دقائق النحو، ساحر بصوره البيانية ذات الذوق الفني المتميز في الصياغة، والمتفرد في التأثير، ومعرفة بلاغة القرآن حتما تمر بمعرفة اللغة العربية وأسرارها.

Résumé

Cette étude esthétique porte sur la valeur l'aspect esthétique du texte coranique ainsi que l'éloquence de son style au niveau de la langue et de l'image d'où son caractère inimitable. Qui a defié la tribaux des arabes. Le style du Coran se caractérise par la rhétorique de la persuasion et la beauté de l'image. Ceci invalide et disqualifie le pouvoir langagier et la statut prépondérant et aristocratique de cette tribu vis-à-vis des arabes ainsi que sa position religieuses et économique hégémonique en est profondément affectée. Mais la

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

prise en charge de la révélation par la langue de Qoraïch permet à cette dernière de devenir une langue sacrée par excellence. Ainsi cette langue atteint à l'universalité et s'impose au monde par son génie propre et inimitable.

toutes les énergies seront canalisées vers les sciences qui s'attachent à étudier les différents domaines de la langue arabe; grammaire , vocabulaire, rhétorique, style, etc.

Ainsi la connaissance du coran passe nécessairement par la connaissance de la langue arabe .

مقدمة:

للأسلوب القرآني الكريم جمالياتُه الفنية التي تؤثر في العقل والقلب معا، فهو يخاطب الذهن في أرقى عملياته الفكرية والإدراكية ويخترق كوامن الوجدان حتى يصبح صافيا وحيّا ونابضا ومتألقا، ومن ثم يكون المنطق التأثيري آخذا بالنفس البشرية متملكا لجوانبها وأبعادها، والتصوير ملمح أساس في النص القرآني يتضافر في تحقيقه اللفظ برنينه الصوتي، والجملة بنظمها وتركيبها المنوع، والفاصلة بإيقاعها المتلائم مع النسق اللفظي والسياق العام، والمشهد الحي بتكريس التصوير المجسد للحركة والتجدُّد، وهذه المنظومة لجماليات الأسلوب تتوالى في سياق دلالي فتعطي للمعنى عمقا وللهدف الديني نفَاذًا إلى أعماق النفس البشرية فتهزها هزا، إذ أن لأسلوب النظم في القرآن الكريم نمطا بيانيا خاصا بلغ حدَّ الإعجاز كونه في أعلى وأسمق مراتب البلاغة.

ويرى بعض الدارسين أن العرب كانت تقدر الجمال قبل الإسلام وكان مفهوم الجمال عندهم مقتصر على الأشياء المادية الحسية مثل جمال المرأة والفرس والبعير والأطلال[1].

اللغة العربية لغة بيانية وجمالية:

مازت قريش العرب في براعة اللسان، وحلاوة البيان، وخلاصة الفصاحة، وجمال البلاغة، وبحكم مكانتها بين العرب نسبًا، وسكنها مكة ومجاورتها للبيت والحرم، تفِدُ إليها قبائل العرب من كل حدب وصوب رغبة في أداء المناسك أو طلبا للتجارة، وعرضا لبضاعة الشعر والأدب، فقد حكى الأصمعي أن العرب إذا نبغ فيها شاعر أقامت له المحافل وتسامعت به عند العرب، لأنه لسانها الذي هو كما السيف يدافع عنها. وحين يتقن الصنعة يحمل هذا الشاعر عقيرته و يُيَمِّمُ صوب قريش

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يعرض بضاعته بحثا عن الشهرة مرة، وصقلا لموهبته مرة أخرى... فكان يتخير أجود ما في اللغة العربية لفظا وعبارة وبيانا، وجمعها في أجمل صور الأسلوب وبلاغته، ولأن العربي كان يشق عليه أن يقع في الخطل في اللغة أو الأسلوب، فهو ينقح ويتصفح ويعرض ويطيل النظر في ما يبدع حتى يفوت الفرصة عن كل من يرغب في إبانة الخطأ والزلل له «ومن الشعراء المتكلف والمطبوع، فالمتكلِّف هو الذي قوَّمَ شعره بالثقاف ونقَّحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهيرٍ والحطيئة[2]، فكانوا يلقبون بعبيد الشعر، فهذا زهير كان ينقح شعره ويراجعه ولا يخرجه إلا بعد عام، فسميت قصائده بالحوليات، وهذه هي طبيعة العربي عموما والقرشي خصوصا. لذا كانت لغة أهل مكة أكثر جمعا بين لغات العرب المختلفة فبحكم موقعها الديني ومكانتها التجارية وتوسطها لأنساب العرب، كانت أكثر اللغات توافقا بين لغات العرب، ولأن شاعرا من قبيلة بعيدة يؤثر لغة قريش لإنشاد شعره، وكل شاعر يصنع الصنيع نفسه وهذا أمر أعطى اللغة العربية القرشية تلك المكانة وهيأ الله لها هذا الجمع والتوفيق بين لغات العرب..

فلما نضجت تلك اللغة هيأ الله لها ما يرفعها ويعلي قدرها ويزيد في تمكينها، حين اختارها لغة الكتاب العظيم المنزَّل من عنده فزادها جمالا وقدسية وأعطاها صفة الانتشار، ورغبة الناس في تعلمها حبًّا في كتاب الله، ورغبة في تعلم دينه والتفقه فيه، فهي لغة لا تجابه من لغات أخرى أو شعب آخر، ولا تصارع كما تتصارع اللغات وتتنازع لأنها لغة الولوج إلى روح الإيمان والتقرب إلى الله تعالى لفهم تعاليم الإسلام وبها يُتذوق جمال القرآن وبلاغته. ومن لطف الله تعالى بهذه اللغة أنه جمعها في لغة واحدة بعدما كانت متفرقة ومشتتة وقبيحة فجعلها موحدة متوافقة وجميلة، فالعرب كانت لها لغات عديدة أشهرها سبع لغات من لغات قريش وألفافها من ظواهر مكة إلى قيس[3]؛ لذا جاء في حديث الرسول ﷺ المشهور قوله: "أُنزل القرآن على سبعة أحرف لكل منها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع"[4]، والمراد بالأحرف اللغات التي تختلف بها لهجات العرب، حتى يوسع على كل قوم أن يقرأوها بلحنهم، وما كان العرب يفهمون من معنى الحرف في الكلام إلا اللغة.

وقد أشار بعض العلماء إلى تعدد لغات العرب والتي تمثلتها لغة القرآن واستنادا إلى حديث الرسول ﷺ، فقال أحدهم "إني تدبرت الوجوه التي تختلف أهل لغات العرب فوجدتها على سبعة أنحاء لا تزيد ولا تنقص، وبجميع ذلك نزل القرآن الكريم:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوجه الأول: إبدال لفظ بلفظ، كالحوت بالسمك وبالعكس، وكالعهن المنفوش قرأها ابن مسعود: كالصوف المنفوش.

الوجه الثاني: إبدال حرف بحرف: كالتابوت والتابوه، وهي كتابة زيد بن ثابت حتى غيرها عثمان رضي الله عنه.

والوجه الثالث: تقديم وتأخير، إما في الكلمة، نحو: سلب زيد ثوبه، وسُلب ثوبُ زيد، وأما في الحرف نحو: أفلم ييأس و أفلم يأيس.

الوجه الرابع: زيادة حرف أو نقصانه نحو: ماليه وسلطانيه، فلا تك في مرية.

الوجه الخامس: اختلاف حركة البناء، نحو فلا تحْسِبَن (بفتح السين وكسرها).

الوجه السادس: اختلاف الإعراب، نحو "ما هذا بشرًا (وقرأ ابن مسعود بالرفع) ما هذا بشرٌ.

الوجه السابع: التفخيم والإمالة، وهذا اختلاف في اللحن والتزيين لا في نفس اللغة، والتفخيم أعلى وأشهر عند فصحاء العرب.

وهذه الوجوه السبعة التي بها اختلفت لغات العرب قد أنزل الله باختلافها القرآن، متفرقا فيه، ليعلم بذلك أن من زل عن ظاهر التلاوة بمثله أو من تعذر عليه ترك عادته (اللغوية) فخرج إلى نحو مما قد نزل به فليس بملوم ولا معاقب عليه[5].

ورغم ما أوتي العرب من فصاحة وبلاغة وحسن بيان، وما كان يصدر عنهم من حرص شديد على إجادة اللغة -لفظا وعبارة وبيانا- فإن ما ملكوه من مقدرة اللغة، "وقف على أعتاب لغة القرآن في إعجازه اللغوي كسيرا صغيرا .. تنحني أمام أسلوبه إجلالا وخشية، وكل حقبة ازدهرت فيها اللغة إلا وتضامن أعلامها وأساتذتها أمام البيان القرآني اعترافا بسموه، وإدراكا لأسراره ولا عجب، "فتلك سنة الله تعالى في آياته التي يصنعها بيديه، ولا يزيد العلم بها الوقوف على أسرارها إلا إذعانا لعظمتها، وثقة بالعجز عنها، ولا كذلك صناعات – الخلق، فإن فضل العلم بها يمتلك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها، ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون[6].

إن هذا الكتاب الذي أنزل إليهم جاءهم بنمط من القول المعجز، لا عهد لهم به رغم أنه مؤلفٌ من لغتهم فكلماته من كلامهم وحروفه من حروفهم ولغتهم، ولكنه جاء في قالب متفرد، يفيض حلاوة لا تنضب، ويزداد روعة كلما رددته واعدت ترديده، وهم يظنون أنهم بإمكانهم محاكاته على سهولته ووضوحه ولكن إذا هموا عجزوا، وكان عهدهم إذا قال شاعر مرة نضح منهم وسبقهم على موضوع وصف أو رثاء أو هجاء تنافسوا وحذوا حذوه وعارضوه وربما أجادوا عليه أو وقعوا قريبا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منه، وما بالهم تحداهم هذا النص الجديد بأن يأتوا بسورة من مثله، وكلما حاولوا عجزوا وبلغ عجزهم أن تمتلئ نفوسهم غضبا وحقدا على من تتلى عليه تلك الآيات ومن يأخذها عنه فأغمدوا ألسنتهم وسلوا سيوفهم وناصبوا النبي ﷺ وأصحابه العداوة وتفننوا في إيذائه مع أصحابه وخاصموه وقاطعوه .. ولقد تملكهم الغرور وأصابهم الإعجاب بالنفس وحاولوا التطاول على أسلوب القرآن، فحاكوه بكلام أشبه بالسخف والتفاهة والهذيان والعبث وارتدوا على أعقابهم خاسرين[7].

نزل القرآن الكريم بأسلوب متفرد له طابعه الخاص فلم يجد مقلدا يقدر على ذلك، وظل قمة عالية منقطعة في نمطها الأدبي، وقد مضت القرون وراء القرون دون أن نجد من بلغاء القائلين من استطاع أن ينحو قريبا من طابع الذكر الحكيم مهما ورد مورده، وأنفق الأعوام الطوال في احتذائه، بل كان قصارى جهده أن يحلي أدبه باقتباس آية أو جملة تشع في السياق لضوء باهر في غيم، وتدل على نفسها بما ألقته من ألق أضفى على الأسلوب بهاء وروعة، فهي وإن زينت الأسلوب من ناحية فإنها من الناحية الأخرى قد أقامت الدليل على أنها من النمط المعجز الذي يتمنى ولا ينال، وصدق قول الله تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ (الإسراء: 88) ، بل إن النبي الكريم ﷺ الذي تحدّر الوحي الإلهي على قلبه ليكون من المرسلين مع اشتهاره بالفصاحة الخالبة، والقول المبين، بحيث أصبح سيد البلغاء في عصره، كان ذا أسلوب بياني يبتعد عن أسلوب القرآن ابتعادا تتسع مسافته أمام الدارسين، بحيث لا يختلط ما يصدر عنه من قول مبدع بما يتنزل عليه من بيان معجز، ﴿**وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**﴾ (الرعد: 38) ، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن القرآن نمط إلهي ليس من طوق البشر محاكاته، ولو جاز لأحد من البلغاء أن يدنو منه لجاز لرسول الله ﷺ[8].

جمالية الإقناع في الأسلوب القرآني:

القرآن الكريم ذلك الكتاب الذي أعجز العرب، نزل به جبريل على قلب النبي ﷺ فهو ليس ككلام العرب لا هو من قبيل الشعر ولا من قبيل النثر، وما كان يتداول عندهم من ألوان النثر كالخطب وسجع الكهان، وقد جاء بوجه من البلاغة المعجزة فاختار أفصح ما في لغاتهم جميعا وسبيل ذلك ما في لغة قريش، وأن الله اختار لغة قريش لأن محمدا قرشي، ولو كان بلغة غير قريش لكان ذلك مغمزا فيه، جاءهم الكتاب ببلاغة عظيمة فدعا العرب إلى التأمل وإعمال الفكر فيما حولهم[9] مما خلق الله لهم وما سخر، فجاءهم بأسلوب الإقناع البليغ يقرع النفوس الغافلة أو المعاندة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبأسلوب حاسم صريح فبسط من الشواهد ما يقنع، ومن الأدلة ما يلزم، ومن الأمثال ما يقيم الحجة ويقدم البرهان، فقدم تعليلا وتحليلا بما يهدي إلى الطريق القويم.

وطبيعي أن تساق الأدلة القرآنية مساقا أدبيا واضحا، تنفتح له العقول والقلوب معا فيقود النفوس ويرشدها إلى الطمأنينة والسكينة، وهذه رسالة البيان في أعلى مراتبه، وأوسع مجالاته إنها رسالة الإقناع والإمتاع، ففي الآية الكريمة: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ (سبأ: 46). إن الآية الكريمة تحذر من خطر الاستهتار والظلال وتعطيل نعمة الفكر بأن هذا النبي المرسل إليهم ليس بمجنون وإن هذا الحكم الوصف صدر عن جماعة حاقدة (صناديد قريش) يطعنون في رسالة النبي ونبوته، ففي قوله تبارك وتعالى (أعظكم بواحدة) فيها تشويق ولهفة وهي "أن تقوموا لله مثنى وفرادى .." ثم تأتي الثانية "ما بصاحبكم من جِنَّة" فإن المستمع سيستعرض حياة محمد منذ أن عرفه ذلك الصادق والأمين والمخلص والمتأدب.. هل به جنة[10]. وبهذا المنطق البليغ سار النص القرآني في هديه لكل جاحد متكبر معارض لدعوته فهو يريد أن يهديه وهو ينهج في هديه منهجا لا يمكن أن يتاح لكتاب سواه وله في ذلك: "روائع خارقة: من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** (78) **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ (يس: 78-79). إن أصل الإنسان هو النطفة لا قوام لها ولا قيمة، من خلية واحدة تصير جنينا ثم يصير إنسانا يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل، ولله القدرة كما خلق الإنسان من نطفة يمكن أن يبعثه من العظم الرميم أوَ ليس الذي حول النطفة إنسانا وجعله خصيما مبينا بقادر على أن يُحول العظم الرميم مخلوقا حيا جديدا[11].

وهنا نلاحظ كيف يطَّردُ البيان القرآني اطِّرادا يملك قوة الإقناع، ومتانة الدفع، وبراعة الحجة، في نسق شفاف يجذب الشعور كما يجذب الإدراك، ويوقظ التفكير كما ينبه الوجدان، وتلك رسالة البيان الحي ذي الهدف المرموق والمثل المنشود[12].

فالقرآن الكريم كتاب بليغ معجز لما تضمنه من ألفاظ فصيحة صيغت في نظوم حسنة التأليف وعبرت عن أصح وأصدق المعاني، والقرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني، واشتمل على عامود البلاغة في وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص به والذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهب الرونق الذي تكون منه سقوط البلاغة[13].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن بلاغة القرآن في أسلوبه وبلاغة إقناعه إنما ترجع حسب الباقلاني إلى النظم وإن النظم أساسه النحو، ووضع اللفظ الموضع الذي يقتضيه ويقول الباقلاني: "وليس الإعجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها، وكونها على وزن ما أتى به النبي ﷺ"[14].

وجوه النظم عند الباقلاني تتلخص في:

1- إن النظم يباين المألوف من كلام العرب ويتميز عن أساليبهم المعتادة رغم تعدد مذاهبه وتصرف وجوهه فالقرآن ليس سجعا، وليس شعرا وليس خطابة وليس جاريا مجرى الرسائل." فنظم القرآن معجز لأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم ومباين لأساليب خطابهم"[15]

2- إن العرب رغم فصاحتهم لم يشمل كلامهم على القدر الوافي من الفصاحة والإبداع -كلام المؤلف- سواء في المعاني والفوائد أو الحكم التي اشتمل عليها القرآن بهذا الطول وعلى هذا القدر، والقرآن رغم طوله وكثرة سوره وآياته متناسب لم يطرأ عليه الاختلال أو الاختلاف أو التكلف قال تعالى: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ (النساء: 82). فالله تعالى يخبرنا أن كلام البشر يقع فيه الاختلال ويطرأ عليه التفاوت إن امتد وطال ولكن القرآن بما نظمه من القصص والمواعظ والأعذار والإنذار والوعد والوعيد، والتبشير والسير المأثورة، وتعليم الأخلاق الكريمة والشيم الرفيعة لا نجد فيه تفاوتا أو اختلافا وإنما جاء كله على درجة رفيعة من البلاغة والفصاحة والجمال والإبداع، وعلى حد واحد من حسن النظم وبديع الرصف، أما إذا نظرت إلى كلام البليغ الكامل، أو الشاعر المُفلِّق أو الخطب المِصْقع رأيت التباين، ولحظت الاختلاف[16].

فنظم القرآن لم يخرج عن عادة كلام الإنس وحدهم، وإنما خرج أيضا عن عادة كلام الجن، فالعرب تعتقد في مخاطبة الجن، وروت لهم شعرا وحكت لهم كلاما، والله حكى عن الجن ما تفاضوا فيه عن القرآن فقال: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ**﴾ (الأحقاف: 29).

والقدر الذي نقله الناس من ذلك تأمله النقاد فلم يجدوا فيه فصاحة تفوق فصاحة كلام الإنس، بل لعله يقصر عنها، فالجن إذن تقتصر عن الإتيان بمثل القرآن كما يقتصر البشر عن الإتيان بمثله، وقال عز وجل: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا**﴾ (الإسراء: 88).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والقرآن الكريم لا يتوجه بحديثه إلى الفكر والعقل فيلزمها الحجة والحكم، بل إن الله فاطر السموات والأرض يعلم أن المعرفة العلمية وحدها لا تكفي فلابد من السيطرة على الشعور وبعث كوامن العواطف حتى يتبينها القارئ أو السامع إذا تلي القرآن أحس بانجذاب نفسي يدفعه إلى تمثل أشرف المبادئ وتطبيق أمثل الحكم، لذا كانت وجهة النص القرآني – رغم ما فيه من أحكام العبادات وتعاليمها وإخبار بالغيبيات- إلى التأثير الوجداني بعد أن يُظهر الحجة المقنعة ليغزو مناطق الشعور الإنساني بتصويره، وكان قد غزا مناطق التفكير العقلي بحججه "فجاء التصوير البياني في القرآن آية الآيات في الروعة والإعجاز"[17].

ومن خصائص النظم القرآني:

1- **جودة السبك**: القرآن الكريم بلغ من ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغا لا يدانيه فيه كلام آخر مهما علا شأنه وارتفع قدره؛ فمثلا أنظر سورة ﴿**وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى**﴾ (الضحى: 1-4).

وهذا ما أشار إليه الخطابي في قوله: "وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور، منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبأوضاعها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ.. وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة، لفظ حامل، ومعنى قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة[18] حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه[19]"،

2- **براعته في تصريف القول**: فنجده يورد المعنى الواحد بألفاظ مختلفة، وطرق متنوعة، وبمقدرة فائقة تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة[20]. مثلا قوله تعالى في تعبيره عن طلب الفعل بصريح اللفظ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى**﴾ (النحل: 90).

وقد يأتي الأمر بلام الأمر المقرون بالفعل المضارع كما في قوله: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (آل عمران: 104). ورغم صراحة الأمر والطلب إلا أن الإنسان المطيع الممتثل لأمر ربه يقبل ذلك الأمر ويطبقه ويمتثل عن حب ورضى وطاعة.

3- **الوفاء بالمعنى مع القصد في اللفظ:** أن القرآن يمتاز بقصده في اللفظ مع وفاء بالمعنى وهذه ميزة تتبين فيها البلاغة وتعظم بها الفصاحة، ويرتقي بها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأسلوب إلى الحد المعجز، وكان الجاحظ أول من رأى أن البلاغة هي الإيجاز، وأول من رد على أستاذه النظام في مذهب الصرفة، وهو يرى أن الإعجاز بالنظر إلى ذات القرآن متصل بنظمه وحْدَه بصرف النظر عما اشتمل عليه من المعاني.

جمال التصوير في القرآن الكريم:

إن الصورة البيانية في الأسلوب المطبوع لا تنفصل عن الفكرة بحال من الأحوال، عكس الأسلوب المصنوع الذي يغلب عليه التكلف؛ والشاعر الأصيل المقتدر لا يكتب الفكرة أولا ثم يبحث لها عن صورة رائعة تُلبسها الجمال، بل تُعانق الفكرةُ الصورةَ، وهو الذي يجمع فيه صاحبه بين العرض المفيد (للفكرة) المقنع، والأسلوب الجميل الممتع، كما يقول الشاعر:

والغُصْنُ في حُضْنِ الرِّياضِ وِسادَةٌ نَمتْ على فَرْعَيهِ من التُّفَـاح
مُتَلازِمين تَوَجَّسَا إِثْمَ الهَـــوى فتَخَوفَا طَرَفَ الضُّحَى اللَّمَّاح[21]

إن الدارس يتناول الفكرة ويحدد الصورة لكي يحصي ألوانا عديدة من الجمال الأدبي ثم إنه يؤكد عدم الانفصام بين الفكرة وصورتها، مثلها مثل الروح التي لا يمكن أن تنفصم عن الجسد[22]. وكان التصوير في القرآن الكريم من أقوى الأدوات الفنية التي يعتمدها، ولقد كان أبو هلال العسكري حين رأى في الصناعتين أن أجود التشبيه يقتصر على أربعة أوجه: مهد لها ممثلا من القرآن الكريم وحده[23].

ومن الشواهد التي قدمها، قوله تعالى:

1- **﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ وَإِنْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾** (الأعراف: 176).

2- **﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾** (الرحمان: 37).

3- **﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾** (الجمعة: 5).

ولو وجد أبو هلال العسكري،[24] نصوصا أكثر بيانا وأجمل صورة لما تخلَّى عنها ولكنه كما ترى في جمال النص القرآني سواء أكان قصيرا أو متوسطا أو طويلا يؤدي بلاغته، وهذا هو النص المعجز، ليس بقصره ولا طوله ولكن بأسلوبه ونظمه وإحكام نسجه، فإن الصورة البلاغية تنكشف أمامنا كاملة الملامح مستوية العناصر وكل لفظ من ألفاظها يؤدي معناه ويوحي بأديبته وتتجسد فيه دلالته الفنية وقد كان الجاحظ في هذا المقام أسبق من رأي أبي هلال العسكري، فالجاحظ يرى أن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم في نظمه وفصاحته قال: "لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له في نظامها ومخرجها وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العرب لظهر عجزه عنها وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين"[25]. وهنا يتضح الفرق بين أسلوب القرآن الكريم وأساليب الأدباء العاديين.

والبلاغة في الكلام أن يبلغ المتكلم ما يريد من نفس السامع، فيصيب منه موضع الإقناع من العقل، والتأثير في الوجدان من النفس؛ ولم يعرف كلام قط قارب القرآن في قوة تأثيره في العقول والقلوب، ومن أعجب ضروب البلاغة فيه إيجازه الذي انفرد به، وتكرار المعنى الواحد بعبارات تسترعي انتباه القارئ، وتفتح آذان السامع، ومزج المعاني الكثيرة في أسلوب موجز متسق رصين[26].

والصورة البلاغية وسيلة من وسائل الناقد البصير، يكشف عن طريقها موقف الشاعر أو الأديب وتجربته، ومدى المقدرة الفنية التي يتملكها، ويستطيع أن يبين مواقفه وأفكاره من خلالها، ومصطلح الصورة البلاغية حديث ولكن القدماء اهتموا به واستخدمه البلاغيون فيما عرف عندهم بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز والتمثيل. وقد حلل البلاغيون الصور البيانية في القرآن الكريم في ضوء هذه المصطلحات البلاغية وكذلك درسوا الصور الشعرية عند بعض كبار الشعراء، ولم تقف دراستهم للصورة البلاغية عند حد البحث والتنظير وحده بل تجاوزه إلى التذوق والتحليل، والوصول إلى القيم الفنية وهذا ما نجده عند عبد القاهر الجرجاني والمنهج الذي درس به الصورة البلاغية واهتمام الجرجاني بنظرية النظم وأهم الأسس اللغوية والبلاغية التي اعتمد عليها.

ومن خلال نظرية النظم فَهِمَ عبد القاهر الجرجاني الإعجازَ بطريقة تغاير من سبقه من العلماء وما ألفوه في هذا المجال، فيرى مفهومه للإعجاز من صورة كلامية مركزة شرحها من زوايا مختلفة حتى يقنع قارئه، فهو يرى أن الإعجاز القرآني إنما يظهر في النظم، والنظم وحده[27]. إضافة إلى مناقشته المستفيضة لقضية الإعجاز، فرد على منكري الإعجاز، وعلى القائلين بمذهب الصرفة، والمنادين بإمكان المعارضة، وكما تعرض لأهل الاعتزال، وللظاهرية، والمفسرين الجاهلين لقواعد التفسير، ومن أبرز النقاط التي بينها أثناء دراسته لنظرية الإعجاز القرآني:

أبرزها وأهمها: إثبات حقيقة عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم وانقطاعهم دونه ذلك أن القرآن الكريم "تحداهم على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو سورة واحدة من سوره، فعجزوا عن ذلك كله. ولا شك أنهم قد حاولوا أو اختبروا قدرتهم في ذلك فتملكهم العجز أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه، أو يقع قريبا منه، ولقد انبهروا به وعجزوا عنه رغم أن ألفاظه ألفاظهم ولكن المعاني من دقتها وحسنها وصحتها في العقول، فهو أي "كلام الله" يجمع بين ألفاظٍ متخيرة جميلةٍ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومعانٍ حسنةٍ صحيحة، وما عجزوا عنه هو ذلك التماسك بين اللفظ والمعنى، وتلك مزايا ظهرت في نظمه، ومميزات صادفوها في سياق لفظه، وبدائعَ راعتهُم من مبادئ آيِهِ. ويرى الجرجاني: "أن العرب قد وجدوا اتِّساقا بهَرَ العقول، وأعجز الجمهور، نظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حك بيافوخه السماء، موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخلدت القُرُوم[28]، فلم تملك أن تصول"[29].

ولقد وفق الجرجاني في أن مفهوم الإعجاز وجمال بيان القرآن وحسن بلاغته واكتمال بناء أسلوبه وفكره إنما يرجع إلى اللغة التي نسج بها والأسلوب الذي خط به وإن الله تعالى وهو عليم بذات الصدور لما رأى شغف العرب بالبيان وحبهم لكل ما هو بليغ من القول وحتى اللفظ جعل الله تبارك وتعالى سر كتابه وهو قوة هذا النظم، ولابد للباحث في كنه الإعجاز أن يعمل عقله وأن يكد فكرة ليصل بعد ذلك إلى المزايا والخصائص التي يمتاز بها نظم القرآن، ليقف عليها بنفسه ويتحسس ذوقه فيها ويصرح دون تردد أنْ قد عجزنا أمام هذا الكلام بحلاوته أن نأتي مثله أو نستطيع أن نقلده.

وإنما قصد الجرجاني بالنظم نظم الألفاظ وترتيبها بحسب المعاني التي تتوالد منها وأن هذه الألفاظ يجب أن تستوعب تلك المعاني فلا اللفظ يتجاوز المعنى، ولا المعنى يفيض عن اللفظ وهذا ما قصد إليه الجرجاني حين قال: "إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها، ولاصقة بها وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق؛ وأعلم أنك إذا كنت نفسك علمت علما لا يعترضه الشك إلا نظم في الكلم، ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبين بعضها على بعض، ولا تجعل هذه بسبب تلك"[30].

ويؤكد الجرجاني هذا المعنى في موضع آخر فيقول: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي انتهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت، فلا تخل بشيء منها[31]. وهنا تظهر مزية الأسلوب الجميل المحكم الذي لا يرقى إليه أي أسلوب ولا يدانيه بل لا يقترب منه إنه تفرد في البراعة وفوت في البلاغة وسبق في الفصاحة هو فوق طاقة البشر والجن، والله تعالى تحداهما مجتمعين في قوله: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ (الإسراء: 88).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا وجه الإعجاز من القرآن الذي ركز عليه الجرجاني كما وضحه في كتابه دلائل الإعجاز، وهو المحور نفسه الذي دار حوله ليؤكد مذهبه في وقوع الإعجاز وإثباته، وهو بعد أن وضح عجز العرب حين تحداهم القرآن ودعاهم إلى المعارضة، والعجز مرتبط بأحوال الشعراء والبلغاء، وبعلم الأدب جملة، "ومن ثم كان المحور الذي يدور حوله، أثبت أن العرب هم الأصل الذي يقتدى به، وهم الأئمة في علم البلاغة وتعاطيها، ومن عداهم تبعٌ لهم، قاصرٌ فيه عنهُم، ومن ثم ركز في النظر في دلائل أحوالهم وأقوالهم، حين يتلى القرآن عليهم"[32].

وانتقل الجرجاني من دراسة أحوال العرب وأقوالهم إلى محاولة إثبات موجبات الإعجاز، فإذا كان القرآن معجزا وفائقا لما يستطيعه العرب من ضروب النظم، وأنواع التصرف، فقد وجب القطع بأنه معجز لأحد سببين:

أولهما: إما أن يكونوا قد عملوا مقدار الفرق بين النظم والنظم، والنسج والنسج فأقروا وانتهى الأمر.

وثانيهما: وإما أنهم قد توهموا هذه المزية لغلطٍ دخل عليهم أو لمرضٍ أصابَهم، ثم أخذ يستعرض أشعارهم وخطبهم وأقوالهم، ويوازن بينها ويحللها، وقد أورد الجرجاني شواهد كثيرة من الشعر والنثر، تؤيد وجهة نظره، وتوضح هدفه ليرُدَّ ردًّا حاسمًا يبطل كل ادعاء، ويدحض كل زعم[33].

وفكرة النظم التي قال بها الجرجاني كانت لها جذور عند الباحثين السابقين عنه ومنهم الجاحظ الرماني والخطابي والباقلاني والقاضي عبد الجبار ... وغيرهم.

وتحدث الجاحظ عن النظم وسمى أحد كتبه "نظم القرآن"، ويقال أنه قد ألفه برغبة من قاضي القضاة أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي داوود؛ ويقول الجاحظ: "فكتبت لك كتابا، أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان، فلم أدع مسألة لرافضيٍّ، ولا لحديثيٍّ، ولا لحشويٍّ، ولا لكافرٍ مبادٍ، ولا لمنافقٍ مقموع، ولا لأصحاب النظَّام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن خلق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة، فلما ظننت أني قد بلغت أقصى محبتك، وأنيت على معنى صفتك، أتاني كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن، وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن، وكانت مسألتك مبهمة، ولم أك أن أحدث لك فيه تأليفا، فكتب لك أشق الكتابين وأثقلهما وأغمضهما معنى وأطولهما.[34] وفرق الجاحظ بين النظم القرآن ونظم سائر الكلام، ودعا إلى دراسة الأدب وفنونه وضروبه وأغراضه لكي يعرف الدارس الفرق بين النظمين، فقال: "وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه، فليس يعرف فروق النظم، واختلاف البحث

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والنثر إلا من عرف القصيدَ من الرجز والمخمسَ من الأسجاع والمزدوجَ من المنثور والخطبَ من الرسائل، وحتى يعرف العجزَ العارضَ الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة الذات، فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام"[35].

وهناك بعض المغرضين من المستشرقين والمبشرين من ينكر الإعجاز في القرآن ولا يسلم بأن أسلوب القرآن في أعلى درجات البلاغة والبيان "وهذا في الواقع، قصور في النظم، وتنكب عن الجادة، إذ كيف ينكرون صياغة لم يمارسوها ويعيبون على كتاب نزل بلسان غير لسانهم، ولا يملكون الخبرة التي تمكنهم التمييز بين فصيح الكلام وركيكه، وثمينه وغثه[36].

إن فصاحة القرآن تدرك بالفطرة العربية السليمة وبالأدب الذي يتميز صاحبه بسمو الذوق وفهم اللغة العربية ونحوها والمران على ممارسة الكلام البليغ منها، وانفرد القرآن الكريم بالفصاحة النادرة والبلاغة الساحرة لا يدرك دلالتها العميقة وأفقها الوضيء المشرق إلا العربي الذي امتزجت العربية بدمه، واستحوذ حبها على مشاعره وأحاسيسه، وعرف دقائقها، وغاص في أعماقها، ورونق شواردها ونوادرها، فهذا هو الذي يدرك إعجاز القرآن البياني، أما من لا يعرف من العربية إلا ألفاظًا وتراكيبَ يُسَوِّدُ بها الورق فإنه لا سبيل له إلى إدراك إعجاز القرآن"[37].

ويرى الباقلاني أن القرآن الكريم "بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، خارجٌ عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباينٌ للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"[38].

ومن لم يتقن اللغة العربية وأسرارَها ويستمرئ جمالَها ويعرف عجائبَها ويغوصُ في مكنوناتها، لا يمكن أن يحس بجمال القرآن ولا أن يدرك الذوق منه، ولا أن يعرف قمَّةَ سر إعجازِه للبشر مهما بلغوا من درجات البلاغة والتمكن من البيان وأولئك هم الذين يخرِّون له مسلمين ومذعنين.

والبلاغة هنا تلك الصناعة المتناهية في الدقة والإيجاز، أو في التعبير أنظر مثلا: **(كلٌ في فلكٍ"، "وربُّك فكبِّر"، "وثيابك فطهِّر"،"قُمْ فَأَنْذِر)** إنها بلاغة الإيجاز، ودقة التعبير مع تلك العذوبة والسلاسة والانسجام والاقتصاد في الكلام .."ولسنا نقول: إن القرآن جاء بالاستعارة، لأنها استعارة أو بالمجاز لأنه مجاز أو بالكناية لأنها كناية، أو ما يطَّرد مع هذه الأسماء والمصطلحات إنما أريد به وضع "معجز"

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في نسق ألفاظه وارتباط معانيه على وجوه السياستين من البيان والمنطق، فجرى على أصولها في أرقى ما تبلغه الفطرة اللغوية على إطلاقها في هذه العربية[39].

إنها اللغة العربية، لغة القرآن اختارها الله تعالى وهو من علَّم البشر اللغة فقال: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾ (البقرة: 31)، وعلم الإنسان البيان وحسن الفصاحة، قال تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ (الرحمان: 1-4)، "لم تضق عن فكرة أو إشارة، ولم تعجز عن مجاز أو حقيقة، ولم تقصر عن قصة أو صورة، وكانت بالغة ما بلغ وحي الله في الإحاطة والشمول، مستجمعة لكل معانيه وحقائقه وأسراره، فما من مجيد لهذه اللغة، ومتقن لأساليبها، وضروب بلاغتها إلَّا جذبه إعجاز القرآن وخرَّ ساجدا لبلاغته[40].

الخواص الجمالية في الأسلوب القرآني:

يظل هذا الكتاب معجزا ومتحديا للبشر ما ظلت الحياة الدنيا، وهو يعلن في هدوء وحكمة أنه كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن خصائص أسلوب القرآن الجمالية:

الخاصية الأولى:

مسحة القرآن اللفظية فإنها مسحة خلابة عجيبة تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، ويراد بنظامه الصوتي ذلك الاتساق والائتلاف في حركاته وسكناته ومداته وغنائه واتصالاته وسكتاته، اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا يسترعي الاستماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام من منظوم ومنثور وبيان[41].

ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز بحيث ولو دخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه، واختل نظامه في آذان سامعيه، ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي ذلك النظام الصوتي الذي يساعد على حفظ القرآن من ناحية ومن ناحية أخرى يسترعي الاستماع، ويثير الانتباه ويحرك داعية في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم وبذلك يبقى الدهر سائدا على ألسنة الخلق وفي آذانهم ويعرف بذاته ومزاياه بينهم، فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقا لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر: 9).

الخاصية الثانية:

إرضاؤه العامة والخاصة فإذا قرأته على العامة أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم، وكذلك الخاصة إذا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قرأوه أوقُرِئ عليهم أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام[42].

الخاصية الثالثة:

إرضاؤه العقل والعاطفة ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معا، ويجمع الحق والجمال معا، وانظر إليه كيف يسوق الاستدلال سوقا ويهز القلوب هزا ويمتع العاطفة إمتاعا، يقول الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (فصلت: 39)، وقوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** (6) **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** (7) **تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** (8) **وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ** (9) **وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ** (10) **رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ**﴾ (ق: 6-11).

تأمل هذا الأسلوب البارع الذي يقنع العقل ويمتع العاطفة في آن واحد حتى في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل إذ قال في الآية الأولى: "إن الذي أحياها لمحي الموتى، وقال في الآية الأخيرة: كذلك الخروج "يا للجمال الساحر، ويا للإعجاز الباهر، الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا بأنصع الأدلة وأمتع المعروضات في هذه الكلمات المعدودات[43].

الخاصية الرابعة:

جودة سبك القرآن وإحكام سرده ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله وآياته وصوره مبلغا لا يدانيه فيه أي كلام آخر مع طول نفسه وتنوع مقاصده وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد.. ومن التناسب ما جعله كتابا سوي الخلق حسن السمت، ﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**﴾ (الزمر: 28)، فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتلعب بالعقول والأفكار.

الخاصية الخامسة:

براعةٌ في تصريف القول قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا**﴾ (الكهف: 54)، وثروتُه في أفانين الكلام ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة وبمقدرة فائقة خارقة تتقطع في أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء.

ولقد خلع هذا التصرف والافتنان لباسا فضفاضا على الجلدة والروعة على القرآن ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة حتى لا يمل قارئه ولا يسأم سامعه مهما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كثرت القراءة والسماع بل ينتقل كل منهما من لون إلى لون كما ينتقل الطائر في روضة غناء من فنن إلى فنن ومن زهر إلى زهر"[44].

الخاصية السادسة:

جمعُ القرآن بين الإجمال والبيان مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في الكلام الواحد للناس بل كلامهم إما مجمل أو مبين: لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان، ولكن القرآن وحده هو الذي يحتمل معنىً أو معان متعددة[45].

الخاصية السابعة:

قصْدُ القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى، ومعنى هذا أننا في كل جمل القرآن نجد بيانا قاصدا مقدرا على حاجة النفوس البشرية من الهداية البشرية ومن الهداية الإلهية دون أن يزيد اللفظ على المعنى أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق. ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير نجده قد جلا لنا المعنى في صورة كاملة لا تنقص شيئا يعتبر عنصرا أصليا فيها أو حلية مكملة لها كما أنها لا تزيد شيئا يعتبر دخيلا فيها وغريبا عنها[46]، بل هو كما قال الله تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعلمون**﴾ (فصلت: 3).

خاتمة :

وبعد هذه الرحلة مع جمال النظم القرآني، نستنتج أن الجمال التصويري في القرآن الكريم شامل لعناصر كثيرة تتآلف جميعها لتعطي لنا معان تستجليها العقول، وصورا فنية تذعن لها القلوب، فللقرآن ملمح أسلوبي متفرد، اتخذ تفرده من العطاء اللغوي نفسه (اللغة العربية)، ومع ذلك فهو ذو شخصية متميزة، وأسلوب متفرد، وهو نمط بلغ الإعجاز بألفاظه ومعانيه، وتصويراته البديعة، وإن ذلك التآلف بين الألفاظ والمعاني يعطيها التوهج التعبيري، والنسق المنظم في إيراد مكنونات المعنى ليدركها أولوا البصائر، ويتملى في جمالها المتذوقون لسمو الأسلوب القرآني الذي تسربله الروحانية، فيسيطر على العقول والقلوب بلغته التصويرية المتميزة؛ ومن خواص نظمه:

- إن معرفة النظم أمر مهم لفهم قضية الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم فهو وحي إلهي يحمل خطابا بليغا معجزا بأدائه البياني.
- انفراد اللغة العربية بالقدرة على استيعاب إعجاز القرآن الكريم والذي إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- إن القرآن على الدرجة العليا من النظم والفصاحة والبلاغة والبيان ولا يرقى إلى درجته أي كلام.
- القرآن هو الكتاب الوحيد الذي أنزل على سبعة أحرف، وهذا رحمة بهذه الأمة وتكريما لها وتخفيفا عن العرب الأوائل حتى تسهل قراءته.

الهوامش:

[1]- محمد علي غوري، مدخل إلى نظرية الجمال في النقد العربي القديم، مجلة القسم العربي بنجاب باكستان، عدد 18، سنة 2011م، ص 129.
[2]- خلف عودة القيسي، الوجيز في مستويات اللغة العربية، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 2010م، ص 291.
[3]- الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1421هـ - 2000م، ص 58.
[4]- صحيح البخاري، ج 6، ص 185، المطبعة الأميرية.
[5]- الرافعي، المرجع نفسه، ص 68.
[6]- عبد الله دراز، النبأ العظيم، نسخة ضوئية : www.google.com
[7]- عبد المجيد محمود مطلوب، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1425 هـ - 2004 م، ط 1، ص 134.
[8]- محمد رجب البيومي، البيان القرآني، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2000 م، ط1، ص16.
[9]- الرافعي، المرجع نفسه، ص 54.
[10]- محمد رجب البيومي، المرجع نفسه، ص 49.
[11]- سيد قطب، في ظلال القرآن، م 5، ج (19-25)، دار الشرق، القاهرة، ط 16، 1410هـ- 1990 م، ص 2977.
[12]- محمد رجب البيومي، المرجع نفسه، ص 51.
[13]- عبد المجيد محمود مطلوب، المرجع نفسه، ص 161-162. أو عد إلى بيان الإعجاز للخطابي، ص 24- 26.
[14]- عبد المجيد محمود مطلوب، المرجع نفسه، ص 162.
[15]- درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، 1960، ص 23.
[16]- عبد المجيد محمود مطلوب، المرجع نفسه، ص 161-162.
[17]- محمد رجب البيومي، المرجع نفسه، ص 64.
[18]- الخطابي، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط 3، ص27.
[19]- محمد حسن شرشر، قبس من البيان القرآني، دار الطباعة المحمدية، الأزهر، ط1، 1403هـ، 1983م ص21.
[20]- الخطابي، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصرّ، ط 3، د ت، ص 27.
[21]- الأبيات لبدوي الجبل (1900 - 1981).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[22]- محمد رجب البيومي، المرجع نفسه، ص 65.
[23]- أبو هلال العسكري، الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1409 هـ، 1998 م، ص 261.
[24]- أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص 261.
[25]- فتحي عبد الفتاح الدجني، الإعجاز النحوي في القرآن الكريم، مكتبة الفلاح، الكويت، 1404هـ، 1984م، ط 1، ص 47.
[26]- محمد الزفزاف، التعريف بالقرآن الكريم، مكتبة الفلاح، الكويت، 1404هـ- 1984 م، ط 4، ص 139.
[27]- أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1410هـ - 1990م، ص 230.
[28]- والقرم: جمع القروم، وهو الفحل، أقرم، أي ترك حتى استقرم، وهو المكرم لا يحمل عليه شيء، وإنما يترك للفحلة.
[29]- أحمد جمال العمري، المرجع نفسه، ص 230.
[30]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، جمعية الرعاية المتكاملة المركزية، مطبعة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 3، 1413 هـ - 1992 م، ص 38.
[31]- عبد القاهر الجرجاني، المصدر نفسه، ص 81.
[32]- أحمد جمال العمري، المرجع نفسه، ص 232.
[33]- المرجع نفسه، ص 232.
[34]- أحمد سيد محمد عمار، نظرية الإعجاز وأثرها في النقد العربي القديم، دار الفكر، دمشق، سوريا، دار الفكر المعاصر بيروت، لبنان، 1998م، ص 125- 126.
[35]- أحمد سيد محمد عمار، المرجع نفسه، ص 126.
[36]- محمد الصالح الصديق، من روائع الإعجاز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005، ص 31.
[37]- محمد الصالح الصديق، المرجع نفسه، ص 30.
[38]- الباقلاني، إعجاز القرآن، تعليق أبو عبد الرحمان صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1417هـ - 1997م، ص 30.
[39]- الرافعي، إعجاز القرآن، ص 258.
[40]- محمد الصالح الصديق، المرجع نفسه، ص 46.
[41]- الزرقاني، مناهل العرفان، ص 568-567.
[42]- الزرقاني المرجع نفسه، ص 571.
[43]- الزرقاني، المرجع نفسه، ص 572.
[44]- الزرقاني، مناهل العرفان، ص 578.
[45]- الزرقاني، المرجع نفسه، ص 579.
[46]- الزرقاني، المرجع نفسه، ص 579.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com